ما يمكن أن يسمى علماً أو معرفة ، وليس ذلك من شيء إلّا هذه النزعات الفردية التى مزقت العالم الإسلامى ، وهذه الجنسيات البغيضة التى قضت على الحياة السعيدة بين أمم الشرق الإسلامى . وإنك لترى كثيراً من شباب الشرق يعرف أخبار فرنسا وانجلترا وألمانيا وأميركا وغيرها من بلاد لا يربطُه بها دم ولا لغة ولا دين ، فإذا ذكرت الأمم التى تربطُه بها الدم وتجذبُه إليها اللغة ويميل بِهِ إليها الدين والعقيدة وَقَف مِنْ ذكرها موقف الغريب الذى أخذته الدهشة وأذهلتهُ الحيرة . والسبب فى هذا التدابر العجيب – بعد الاتصال والإخاء – هو ما أشرنا إليهِ من ظهور فتنة الجنسيات ، ثم انصراف الشباب منا عن تتبع أخبار الأمم الشرقية عامة والإسلامية خاصة ، ثم قلة عناية الصحف بأخبار هذه الأمم ، ثم هذا الكسل الذى اعترى أهل الشرق فصرفهم عن التزاور والتعارف ، هذا مع أن الرحلة هى أهم أسباب المحبة بين الناس وأحسن طرق المعرفة وأجلُّ الأعمال خطراً فى بسط النفس والفكر والامتداد بهما إلى طلب السعادة والخير والمنفعة التى تعمُّ ولا تقف عند الحدود الضيقة التى نصبتها الشهوات المدنية .

* * *

ظهر كتاب « حاضر العالم الإسلامى » للمرة الأولى سنة ١٣٤٣ من الهجرة ، وكان الشباب يغلى فى دمى غليان المرجل ، وكنت أحب أن أتسقط أخبار الأمم الإسلامية ما استطعت ، وكنت أؤمل آمالاً كثيرة يُمِدُّها خيالى وتزينها أحلامى ، وكان يقوم على تهذيب نفسى وتشذيب آمالى وأحلامى رجل أحب أن اعترف بفضله عليَّ ، وهو الأستاذ « محب الدين الخطيب » الذى طبع كتاب « حاضر العالم الإسلامى » بمطبعتهِ للمرة الأولى . فكان هذا الأستاذ الجليل أول من هدانى إلى قراءة هذا الكتاب ، وما عليهِ من تعليقات شيخ الكتّاب الأمير شكيب أرسلان ، واستفدت من تعليقاته عليهِ أكثر مما استفدت من كلّ كتاب قرأتُه إلى هذا اليوم ، فلما ظهرت هذه المطبوعة الثانية ورجعت إلى قراءتِه مرة أخرى انفسح لى مجال الفكر فيهِ أكثر من ذى قبل وكأنى ما قرأت منهُ حرفاً قبل هذه المرة وذلك لأن الأمير شكيب استوفى أبوابه وحشد لها علماً كثيراً لا يقوم بهِ غيره ، ولا غرو ، فإن هذا الرجل قد سلخ من عمره خمسين عاماً أو تزيد فى تتبع

الحركات السياسية والدينية والعلمية والأدبية والتجارية التى نشأت وترعرعت فى العالم الإسلامى وبثَّ فيها قلمه روحاً عظيمة تركت آثاراً فى كل بلد إسلامى . وهذا الكتاب الذى بين يدى هو – فيما اعتقد – أجل ما عمل الأمير وما ترك من أثر ، ولا نزال فى حاجة إلى قراءته وتدبره والرجوع إليه إذ هو الكتاب الوحيد فى العربية الذى يجمع بين دفتيه أخبار العالم الإسلامى وما ألمَّ به وعمل السياسة فى إرهاقه وتحطيمه وتمزيقه . وليس أحوج إلى قراءة هذا الكتاب من شباب العالم الإسلامي الذين انصرفوا عن دراسة شؤون الدول الإسلامية والشرقية ، ولم توافهم الصحف بأخبار وافية صحيحة عن هذا العالم . وأنا فى كلمتى هذه لا أميز بين مسلم ومسيحى ، فإن الإسلام قد أظلَّ النصرانية واليهودية فى الشرق بظله الرطب زمنًا طويلاً وكانوا جميعاً فى أمنٍ وعزّة لا يلحقهم حيف ولا تمسهم الذلة وكان أمن الإسلام أمنهم وعزّه عزّهم ، ولم يكن هناك استعمار يجعل الأقليات فى بلاد الإسلام زناد بندقيته التى يرمى بها الجامعة العربية الإسلامية . إن التاريخ لا ينسى أن الجيوش الإسلامية التى قاتلت الصليبيين من أهل الغرب كانت تجمع تحت لوائها المقاتلة من النصارى واليهود وغيرهم ، وأن التاريخ لا يستطيع أن يذكرنا بشكوى كانت لنصارى الشرق من المسلمين وأحكامهم ، ألا وإنَّ موقف الأقلية المسيحية فى سوريا لخير مثل مضروب لذلك العهد المضىء بالعدل والمساواة والحق .

ليس للعالم الإسلامى معلمة (دائرة معارف) يوثق بها فى هذا العصر إلَّا هذا الكتاب . ولم نأخذ على هذه المطبوعة شيئًا من النقص إلَّا أشياء قليلة ، فالمطبوعة الأولى من الكتاب كان التخالف فيها بين حروف الأصل المترجم وتعليقات الأمير بيّناً . أما في هذه المطبوعة فالأصل والتعليقات كلها من حرف واحد . وأيضاً ، كان فى المطبوعة الأولى فهرس دقيق للأعلام والمواضيع خلت منهُ هذه المطبوعة . وكان صواب الرأى أن يكون الفهرس فى هذه أوفى منه فى الأولى وأوسع ، على أن هذا لا يقلل من قدر هذا الكتاب الذى لا يستغنى عنه شرقى يريد أن يشعر يوماً بالعزة والكرامة والعلو فى ظلال الحرية والاستقلال .

ذكرى الشاعرين

جمعها ورتبها « أحمد عبيد » صاحب المكتبة العربية بدمشق
– مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥٢

كان فى عصور الحكومة العربية التى أقامها الإسلام فى الشرق وأظلَّ بها ما ترامى بين مشرق الشمس ومغربها من أمم ألَّف بين قلوبها وألسنتها وثقافتها وعلمها ، قومٌ قد اتخذوا الورق والكتب تجارة درَّت عليهم رزقاً مباركاً ، وسمى الناس هؤلاء القوم « الورَّاقين » . فكانت دكاكين هؤلاءِ الورَّاقين مجامع تضمُّ صفوةً من العلماء والشعراء والمحدثين والفقهاء والنساخين والأدباء لا يزالون يردون عليها ويصدرون منها ما بين طرفى النهار فى طلب الكتب أو بيعها أو نسخها . وكانت مجالس هؤلاءِ المثقفين فى هذه الدكاكين لا تخلو من مناظرة أو مطارحةٍ أو جدلٍ ، أو ذكر خبر ، أو رواية حديث ، أو إظهار حِكمة . فنشأ من بين هؤلاءِ الورَّاقين رجال من أهل العلم ألّفوا وقعدوا للدرس وقالوا الجيد وبذُّوا كثيراً من أهل العلوم التى فرّغوا قلوبهم لها مع تجارتهم . والأديب « أحمد عبيد » هو خلف من أولئك السلف الذين جمعوا إلى التجارة بالكتب علم ما فى هذه الكتب ، وله آثار جيدة وشعر طيب ولا يزال يطالعنا كل عام أو عامين بكتاب مما ألَّف أو جمع أو اختار .

وآخر كتبه « ذكرى الشاعرين » حافظ وشوقى ، جمع فيهِ أكثر ما كتب الأدباءُ فى مصر والشام والعراق والمغرب عن هذين الشاعرين قبل وفاتهما وبعدها . وجمع أكثر المراثي التى قيلت فيهما ، وأضاف إلى بابى الكتاب مختارًا من شعر حافظ وشوقى أكثره لم ينشر . وفى هذا الكتاب ترى كيف اهتزَّ العالم العربى لموت هذين العلمين ، وكيف أفاض الكتَّاب والشعراءُ فى ذكر آثارهما ومناقبهما وكيف أنطقت الفجيعة كل صامت وأوهت كل بليغ . ولا يشك أحد فى أنه لم يَكِنَّ الوفاءَ للشاعرين فى جمع ماكتب عنهما وحسب ، بل الوفاءُ فى تتبع ما أحدثا فى الشعر العربى من جديد ، وأقاما من بنيان كان قد تهدَّم فى عصور اللكنة والنبطية المريضة التى كانت لسان الشعراء فى القرون الأربعة قبلهم ، غير أن